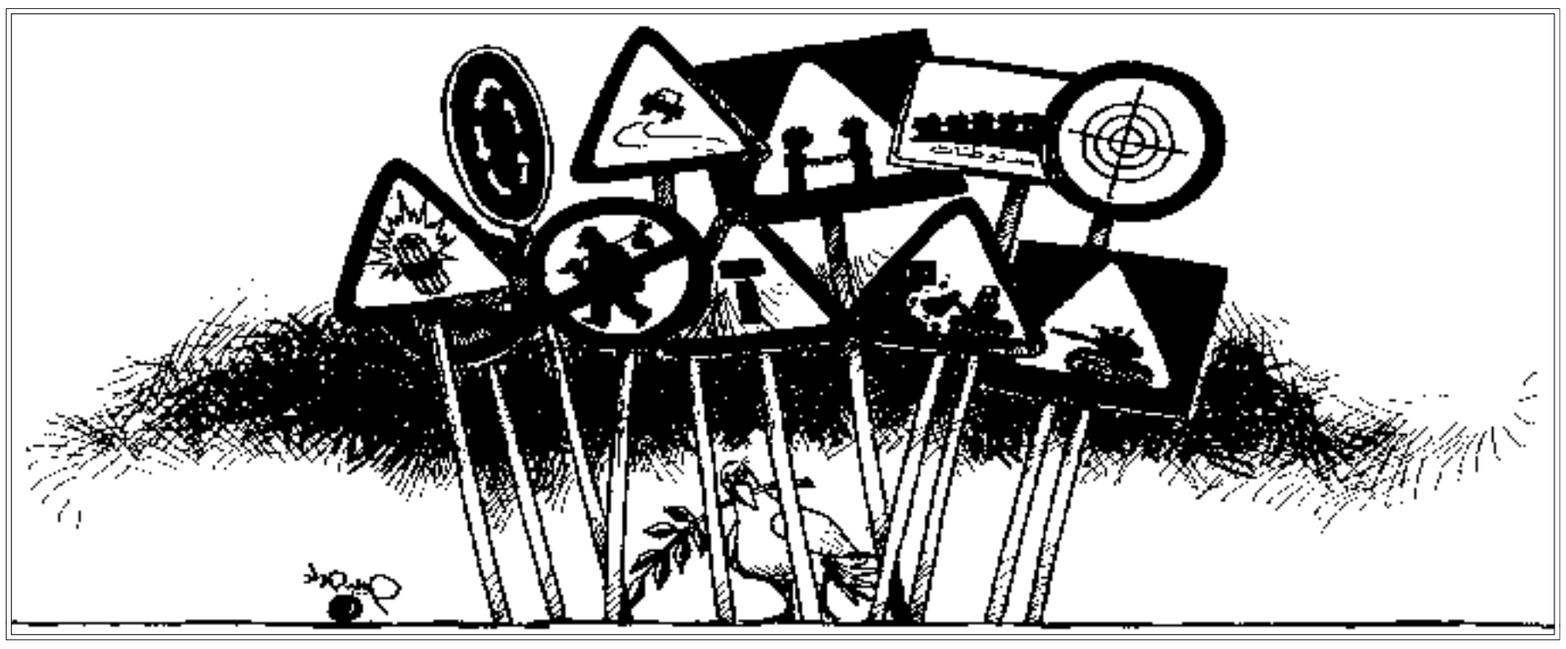

عروبة العراق... إلى أين؟

مصطفى الفقي *

■ ركزت كل الكتابات التي دارت حول المسألة العراقية قبل الحرب وأثناءها وبعدها على مواضيع بعينها بدءاً من اسلحة الدمار الشامل مروراً بالإطاحة بالنظام القائم وصولاً إلى عراق ما بعد صدام. ولكن تلك الكتابات أغفلت في مجملها تأثير ما جرى على عروبة العراق وهو ما سنناقشه في هذا المقال الموجز. فالعراق بلد عربي أصيل العروبة تشكلت قبائله وعشائره من هجرات عربية استقرت بين النهرين منذ الفتح الإسلامي، كما كان الوجود العربي قائماً قبل ذلك على تخوم بلاد الفرس عندما كان يطلق عليهم «عرب المنازرة»، بل إن التأثير والتأثر بين شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين أدى إلى تلاحم سكاني وتواصل إنساني لم يتوقف عبر التاريخ. فعروبة العراق إذاً هي عروبة مستقرة وليست عروبة وافدة. من هنا يثور التساؤل عن مستقبل تلك العروبة في ظل عدد من الاعتبارات يحسن دراستها والاهتمام بها في مواجهة ظروف صعبة عاشها الشعب العراقي في السنوات الاخيرة، كما أن العلاقات العربية العراقية تأثرت هي الأخرى وأصبح من المتعين علينا أن نتعامل مع ردود الفعل الجديدة في رحابة كاملة وتفهم موضوعي بعيداً عن الشعارات والعواطف والانفعالات، ولذلك فإننا سنتناول الموضوع من خلال عدد من العناصر نجمل أبرزها في النقاط الآتية:

– أولاً: إن هناك احساساً عاماً باحتمال وجود مرحلة موقتة وعابرة من الضيق العراقي العام بمفهوم العروبة، فالمواطن العادي في بغداد أو البصرة او الموصل وغيرها من مدن العراق وقراه وفي حواضره وبواديه يشعر أن أمته العربية لم تكن داعمة له بالشكل الكافي اثناء المحنة، بل إن هناك من يرى أن استمرار حكم صدام القائم على الديكتاتورية والقهر كان افرازاً طبيعياً لواقع عربي متخلف، وهم يعتبرون ان جزءاً كبيراً من المسؤولية يقع على العرب الذين سمحت أوضاعهم المتردية باستمرار النظام العراقي السابق في الحكم خصوصاً بعد غزو الكويت العام ١٩٩١، ويرون أن النظام العربي فشل في حماية الشعب العراقي من حكامه ومهد بمزيج من الخوف والسلبية لاستمرار واحد من أكثر نظم الحكم عنفاً وقسوة في التاريخ المعاصر، حتى دفع الشعب العراقي فاتورة الحرب مع إيران، ثم غزو بلاده للكويت، ثم الحصار المفروض عليه لأكثر من اثني عشر عاماً. ولقد جسدت معاملة العراقيين للمتطوعين العرب الذين ذهبوا الى العراق أثناء الحرب الاميركية عليه ما يؤكد ذلك، اذ وجد فيهم الشعب العراقي مجموعات وافدة ينفث فيها عن غضبه ويعبر في عنف عن شعوره المحبط تجاه أمته التي خذلته من وجهة نظره، فهي لم تكن كما كان يريدها فقامت مجموعات من الشعب العراقي بالاعتداء على المتطوعين العرب وطاردتهم وقتلت عدداً منهم وسلمت عدداً آخر الى سلطات الاحتلال الاميركي في مشاهد مأساوية تجسد بحق مؤشراً لبداية احتمال كفر بعض العراقيين بعروبتهم.

– ثانياً: إن إحساس المواطن العراقي بتراثه الحضاري السابق على دخول الإسلام والتالي له يترك لديه إحساساً قوياً بالذات ويعطيه شعوراً بالتميز، وهو أمر تشترك فيه كثير من الشعوب ذات الاصول الحضارية العريقة، لذلك فإن الإحساس بالمرارة في حلوق العراقيين – سواء كان لذلك مبرر من عدمه – أصبحت تفرز هي الأخرى مشاعر سلبية تجاه قضية العروبة في العراق حتى بدأت النعرة الشعوبية في الظهور، كما بدأت التوجهات الدينية والتقسيمات المذهبية تمارس هي الاخرى دورها الذي ينتقص من مفهوم العروبة ويقف على أرضية مختلفة في ظل دولة تمثل «فسيفساء» عرقية و«موزاييك» سياسية.

– ثالثاً: إن غيبة المد القومي طوال فترة الحكم «الصدامي» عندما كان التركيز منصباً على هيبة الزعيم الأوحد مع نفور من أية شراكة سياسية يحتل فيها زعيم آخر مكاناً في ميادين العراق أو شوارع مدنه، ان تلك الغيبة التي وصلت الى حد الاستخفاف بالزعامات القومية عندما منع النظام العراقي السابق في مستهل عهده بالحكم جماهير شعبه من التعبير عن حزنهم عندما فقدت الأمة العربية واحداً من زعمائها البارزين وهو الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، لقد تكرست خلال العقود الاخيرة توجهات نحو العزلة كانت تشد العراق بعيداً عن أمته ليبدو كياناً وحيداً يعاني فيه شعبه من كل أسباب الضغط والبطش والقهر. ولا زلت أذكر أن صدام حسين كان يتعامل مع رؤساء وملوك «مجلس التعاون العربي» وكأنه زعيم الأمة أو هو رئيس فوق الرؤساء، إنها نعرة استعلاء أحاطت الشعب العراقي بسياج من الوهم الذي عزله عن التيارات القومية الحقيقية ووضعه داخل ستار حديدي استمر لسنوات طويلة.

– رابعاً: إن العلاقات العراقية – الكويتية تحتاج هي الأخرى إلى ترميم، بل ربما إلى ما هو أكثر من ذلك، فالنظام العراقي السابق ارتكب جريمة غزو الكويت وحقن الأجيال الجديدة من شعبه بأفكار ليست لها صلة بالمشاعر القومية والتضامن العربي، بل إنه ضرب الفكرة القومية ذاتها في مقتل وأساء الى العمل العربي المشترك إساءة بالغة حتى كان الفلسطينيون هم أول من دفع جزءاً كبيراً من قيمة «الفاتورة» باهظة التكاليف التي عانت منها القضية العربية الأولى في السنوات الاخيرة، ونحن نتطلع إلى علاقات عراقية – كويتية بل وربما علاقات عراقية خليجية تبرأ من آثار الماضي ولا تعاني من عقده ولا تتحمل أوزاره. فالشعوب المتجاورة يجب أن تتعايش بروح حقيقية والتزام متبادل مع احترام للحدود الدولية والكيانات السياسية، وهنا أظن أنه يبقى على الأخوة الكويتيين عبء كبير من العمل السياسي والتواصل الأخوي مع الشعب العراقي لأن الصورة المشوهة التي غرستها الأحداث الأخيرة قد جعلت الكويت ظلماً وكأنه المتحمس المستمر للتدخلات السياسية والعسكرية في العراق.

– خامساً: إن سقوط النظام العراقي قد أدى إلى سقوط حزب «البعث» الذي ظل يحكم في بغداد ما يقرب من خمسة وثلاثين عاماً متصلة وهو ما يعني ايضاً سقوط بعض الشعارات القومية ولو من الناحية النظرية على الأقل حيث كانوا يقولون للعراقيين إنهم ينتمون إلى «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة»، فسقوط الجناح العراقي لحزب «البعث» قد ادى الى فراغ سياسي في المشرق العربي رغم تسليمنا بالخلافات العميقة بين جناحي الحزب في بغداد ودمشق عبر العقود الاخيرة.

ولقد أردت من هذه النقاط الخمس أن أوضح في جلاء أن عروبة العراق مهددة وأن هناك احتمالات لا تزال قائمة في أن ينفرط عقد انتمائها القومي ولو الى حين، لذلك قد لا يدهشنا مثلاً لو أن الولايات المتحدة الاميركية دفعت حكومة عراقية موالية الى توقيع اتفاقية سلام مع إسرائيل بصورة قد تزيد من الضغط على الشعب الفلسطيني الباسل وتضيف الى خطايا النظام العربية ذنباً جديداً، فالعراق الذي خرج من سنوات حكم ديكتاتوري ثقيل أصبح مهيئاً لتغيرات كبيرة قد تبدو تكاليفها باهظة في وقت يحتاج فيه العراقيون الى الاستقرار الضائع والأمن المفقود والحياة السياسية السليمة، وإذا كان العراق يمثل لنا البوابة الشرقية لأمته العربية فإنه يبدو الآن أشد ما يكون حاجة الى الدعم المادي والمعنوي من كل أشقائه والوقوف معه بصورة موضوعية ليس فيها مزايدة أو تقاعس ولكنها تعكس روح التعاطف الشديد الذي نشعر به جميعاً تجاه ذلك الشعب الذي انتقل من حرب الى غزو الى حصار.

إن عروبة العراق ستكون موضع اختبار حقيقي وهو ما يلزمنا بأن نعطيه بقدر ما أعطى لأمته العربية حضارة وتراثاً أو فكراً وثقافة، فارض الرافدين بوتقة انصهار «الآشوريين» و«البابليين» ومستودع حضارة «حامورابي» ومسرح دور «جلجامش» هي أرض خصبة لم يتوقف عطاؤها الضخم منذ فجر التاريخ، فهي بلد الشعراء وموطن الأدباء ومزار العلماء، وإذا كنا نقلق دائماً على عروبة السودان من المد الأفريقي القادم من جنوبها فإننا نقلق الآن على عروبة العراق من الوجود الأجنبي في قلبها، وما قمنا به في هذه السطور هو طواف سريع حول العراق بشيعته وسنته، بعربه وكرده، بمسلميه ومسيحيه، بل والتركمان أيضاً فيه، بحثاً عن مظلة واقية للهوية العراقية لا نكاد نجد لها أفضل من الاعتصام بالعروبة في هذه الظروف الصعبة والقلقة والغير المسبوقة، لذلك لا يجب أن يغب عن أذهاننا ان الاحتكاك الذي يحدث حالياً بين الشعب العراقي والقوات الاميركية إنما هو تعبير عن شعور برفض الاحتلال الاجنبي والتمسك بالهوية الوطنية والإحساس بالمأزق التاريخي الذي تعاني منه المنطقة كلها، من هنا فإن التعجيل بقيام حكومة وطنية عراقية سيكون ضماناً سريعاً لصيانة الهوية العراقية وحماية دولة العباسيين التي ما سقطت الا لتنهض، وما احتلت الا لتقاوم حتى تغلبت على كل الصعاب والفتن والمحن منذ عصر «الحجاج» الذي قطف الرؤوس إلى حكم عبد الكريم قاسم الذي تجري محاولات أخيرة لرد الاعتبار اليه مروراً بالضربة الدامية التي وجهها «هارون الرشيد» للبرامكة أو الاجتياح التتري الكاسح لبغداد عندما أحال الإسراف في سفك الدماء مياه دجلة الى اللون الأحمر القاني!.. إنها ضربات قدر، وآلام شعب، وعذابات أمة.

* كاتب قومي، عضو البرلمان المصري.

التضامن مع اليهود "الإسرائيليين" يكون بتخليصهم من عنصريتهم

نايف حواتمة *

■ لماذا عرقل الأميركيون دواليب «خريطة الطريق» بنزولهم عند الشروط الشارونية الأربعة عشر؟ ولماذا تبنوا الخط الإسرائيلي الذي يقوّض الأسس التي قامت عليها؟ شارون بما هو معروف عنه من براغماتية عالية، والمسكون بهاجس الأمن، كما تصفه الصحافة الإسرائيلية، انطلق في مخطط تلغيمه لمسالك الخريطة الوعرة من فهمه لحدود هامش المناورة المتاحة أمام إدارة بوش، التي يسيطر عليها صقور اليمين البروتستانتي (المسيحي) الأميركي، الذين تتطابق مواقفهم مع مواقف «الليكود» الصهيوني. وخلاصة الرأي عندهم ما لم يأخذه العرب بالحرب وبالقوة لا يحق لهم المطالبة به كثمن للسكوت عن «هزائمهم» والقبول بنتائجها، ولا يخفي الأميركيون بأن ما جرى من احتلال للعراق لن يكون آخرها، والمطلوب من كل العرب، خصوصاً عرب المشرق، استكمال دفع فاتورة الهزيمة الأخيرة في العراق، على رغم التسهيلات والقواعد البرية والبحرية والجوية التي اندفقت منها القوات الأميركية والبريطانية في الحرب على العراق.

رسميات دول عربية تنفست الصعداء، فلقد مضت عاصفة احتلال العراق بهدوء، ولم تنغص من صفو علاقاتها مع الحليفة أميركا أية تحركات جماهيرية ذات وزن، فلقد غابت الشعوب العربية من البحر إلى البحر عن الفعل المؤثر على مسار الحدث – الزلزال، وزاد من هذا الغياب وقع الهزيمة التي أسقطت مع انهيار النظام الديكتاتوري التوتاليتاري باختفاء صدام حسين آخر لبنات التضامن الرسمي العربي، على رغم ما كان عليه هذا التضامن من عجز وضعف شديدين.

كان لأميركا الفعل الوافر في قمة شرم الشيخ، حيث تم تشريع الاحتلال الأميركي للعراق، ولحق بنتائج القمة غالبية صامتة لم تحضر، وصادقوا على شطب العراق من خريطة الدول العربية المستقلة لسنوات تطول – ولا نقول ذات سيادة – وتساوقوا مع الموقف الأميركي الداعي إلى محاربة الانتفاضة والفصائل الفلسطينية التي تمارس المقاومة المسلحة، مع قطع التزام بمنع كل أشكال الدعم الرسمي والشعبي العربي عن مقاومة شعب فلسطين وانتفاضته الباسلة للخلاص من زحف الاستيطان والاحتلال، وهذا بمثل سابقة خطيرة في آلية العمل الرسمي العربي، حيث تم القفز عن قرارات القمم العربية بقرار أميركي – عربي (يمكن أن نخص بالذكر هنا قمة القاهرة ٢١ تشرين الأول/ اكتوبر ٢٠٠٠ التي خرجت بقرارات مالية وسياسية لدعم الانتفاضة والمقاومة شعبياً ورسمياً وكان هذا أحد تأثيرات الانتفاضة)، وتم كل هذا تحت رايات الشعار المضلل الذي رفعته إدارة بوش بعد أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١ «مكافحة الارهاب»، شعار أعمى لا يفرق بين الارهاب والمقاومة المشروعة للاحتلال الاستعماري والصهيوني.

في قمة العقبة أخذ شارون بدوره ما أراد بل وأكثر من ذلك، وجاء الخطاب السلطوي الفلسطيني في القمة متهالكاً، واستنسخ صيغة وحتى مفردات الخطاب السياسي والفكري والثقافي الاسرائيلي الشاروني والاميركي في تقديمه «الموقف من المقاومة المسلحة»، و«إدانة أي عمل مسلح ضد الاسرائيليين اينما كانوا»، وفي عرضه «لعذابات اليهود في أوروبا» وربطها بسياق فلسطيني، وفي هذا تسليم بنظرية «الحق التاريخي والأخلاقي الصهيوني في فلسطين»، وفي المقابل سكوته عن الحقوق الاساسية للشعب الفلسطيني ولمقومات الحل الشامل المتوازن. هذه الصيغة حملت دلالات اخطر بكثير من تلك المغالطات التي صرح بها الخطاب، حيث وصمه للمقاومة الفلسطينية المسلحة المشروعة في المناطق الفلسطينية المحتلة بالارهاب، وانقلابه على التاريخ النضالي الوطني الفلسطيني بحديثه عن عذابات اليهود على مر التاريخ، وقوله بأنه آن الأوان لوقفها. وهنا نقول لصاحب كتاب «الصهيونية بداية ونهاية» ان اليهودي الصهيوني المظلوم والمضطهد في أوروبا جاء الى بلادنا غازياً ومحتلاً، ولم يتوقف خلال ما يقارب قرن من قتل ابناء شعبنا ونهب أراضينا وحقنا في وطن مستقل. ان التضامن مع اليهود لا يكون إلا بمساعدتهم على الخروج من شرنقة العنصرية التي وضعتهم فيها على الدوام، قياداتهم الصهيونية الارهابية، وايديولوجيا المشروع الاستعماري الصهيوني التوسعي في فلسطين والأقطار العربية المجاورة.

السيد بوش المنتشي بنتائج القمتين أراد ان يجزل من هداياه لشارون، فأعطى التزاماً مطلقاً بالحفاظ على طابع «يهودية دولة اسرائيل»، هذا الطابع العنصري الذي يمنع حتى الآن قبول «اسرائيل» بتسوية متوازنة وشاملة للصراع، فتحت هذا «الشعار الحق» المسكون بالمخاوف الأمنية على حد زعمهم تتم المطالبة بشطب حق العودة للفلسطينيين بشكل مسبق، ويعرض للخطر حق مليون ونصف مليون فلسطيني ما زالوا منزرعين في أرضهم وأرض اجدادهم عام ١٩٤٨، ويضعهم في مهب رياح المجهول السياسي والجغرافي داخل اسرائيل، وحتى خارج حدود ١٩٤٨ عبر مشاريع التهجير (الترانسفير) فضلاً عن استمرار سياسة التمييز والاضطهاد العنصري الجاري منذ عام ١٩٤٨ داخل «دولة اسرائيل»، وشكل الحق المزعوم في الدفاع عن الطابع اليهودي لدولة اسرائيل على الدوام حجة لكل حروب الإبادة والتطويق والاعتداءات التي مارستها اسرائيل على الفلسطينيين والشعوب العربية، ولقمعها الدموي للانتفاضة، واستمرار احتلال الأراضي الفلسطينية وزرعها بالمستوطنات، التي غالباً ما تسمى أمنية، وفوق كل هذا وذاك فإن هذا الالتزام يحمل في طياته تقاطعاً آخر شديد الخطورة مع السياسات الشارونية، فحماية واحة الديموقراطية (اسرائيل) لا تكون حسب مفهوم السيد بوش إلا بالحفاظ على طابعها العنصري الصهيوني.

أصوات الناخبين الاسرائيليين أوصلت شارون وحزبه الى سدة الحكم مرة أخرى، على اساس برنامج حزبه الانتخابي العنصري القائم على وعود بسحق الانتفاضة تحت شعار شارون الانتخابي الذي رفع في وجه ايهود باراك وحزب العمل «دعوا الجيش ينتصر»، ورفض الانسحاب الى حدود ٤ حزيران ١٩٦٧، واقامة دولة فلسطينية مستقلة كاملة السيادة، ورفض حق العودة، ورفض التخلي عن المستوطنات، وتهويد القدس الى الأبد. يا للمفارقة... راعية السلام والديموقراطية والحرية في العالم اميركا تبارك هذه الديموقراطية على الطريقة الاسرائيلية «يهودية وصهيونية الدولة» والتطاول على الحقوق الفلسطينية التي قررتها الشرعية الدولية.

«الإسرائيليون» ديموقراطيون يختارون بحرية سفاحهم الذي يجلس على كرسي رئاسة وزراء دولتهم الاحتلالية، وفي الجهة الاخرى المقابلة ممنوع على الفلسطينيين ممارسة الديموقراطية ومطلوب من قيادتهم المستحدثة تجاوز عقدة الاجماع الشعبي الفلسطيني المتمسك بالحقوق الوطنية المشروعة وتعبيرات هذا الاجماع الذي تمثله الانتفاضة. من اجل هذا كان لا بد من تدمير مؤسسات الشرعية الفلسطينية وتجاوزها حتى لو كان ثمن ذلك فكان البديل الوطني في الرد والبديل على سياسات اوسلو وأهل اوسلو بالانتفاضة والمقاومة التي عادت وأعلنت بأن شعب فلسطين لا يقبل بأقل من تسوية سياسية يكون أساسها تنفيذ قرارات الشرعية الدولية.

مهّد شارون لخطة الطريق بمسلسل جرائم يومية دموية بحق الشعب الفلسطيني، بعدها قرر الاميركيون التقدم الى أمام، مطالبهم هذه المرة لم تقف عند حدود فرض السياسات، بل وفرض القيادات ايضاً، فكان لهم ما طلبوا من تعديلات دستورية وحتى تسميات لشخوص شاغليها، مرة أخرى هنا لا يهم حجم شعبية القيادة المستحدثة وحجم نفوذها الجماهيري، المهم قبولها بما هو مطلوب منها وحسن ادائها وعملها على تنفيذه، والاختيار وقع على الاشخاص انطلاقاً من نواياهم ورؤاهم التي طالما رددوها.

هاجس الامن الاسرائيلي يعتبر بان التهديد لا يتأتى من فعل الانتفاضة المقاوم فقط، بل يعتبر هذا الفعل وليد تربية مناهج التعليم والتحريض على العنف التي تُخرج اجيالاً «ارهابية» مشبعة بكره اسرائيل. هنا نسأل كيف يجب أن يربي شعب محتل ابناءه، وهل يولد الاحتلال بمظالمه سوى النضال ضد المحتل، والكره لجنوده القتلة وناهبي ارضه المحتلة؟! القتل والمذابح التي ارتكبتها عصابات المهاجرين البيض على مساحة اميركا وذهب ضحيتها ٥٠ مليوناً من اهل البلاد الاصليين، لا تختلف ابداً من هيث الهمجية والبشاعة مع ما ترتكبه قوات الاحتلال وميليشيات المستوطنين بحق ابناء شعبنا، لعله لهذا السبب لا يمكن لبوش وادارته اليمينية ادانة العنصرية الدموية الاسرائيلية التي يماثل تاريخها تاريخ دولة البيض في اميركا.

ارضاء لمبادئ الديموقراطية الاميركية والاسرائيلية الصهيونية التوسعية على الفلسطينيين ان يقتلوا وان يدينوا نضالاتهم، وان ينسلخوا عن تاريخهم، وعلى العرب ان يساعدوهم في تحقيق ذلك، ومفتاح هذا تنفيذ ما هو مطلوب منهم بالمساهمة في محاربة «الارهاب» ومنع أي شكل من الدعم المادي والمعنوي للانتفاضة، والمباشرة بالتطبيع مع اسرائيل من دون اشتراط تنفيذها لأي من قرارات الشرعية الدولية.

امتلك الاسرائيليون امتلكوا على الدوام استراتيجية للحرب تشكل استراتيجيتهم التفاوضية جزءاً منها، ولم يغب عن ادائهم التفاوضي في يوم من الايام التزامهم بحدود الهامش الذي رسمت ضفافه عقيدة الحركة الصهيونية العنصرية. في حين افتقد المفاوض الفلسطيني أبسط مبادئ الاستراتيجية التفاوضية ومارس سياسات وقدم تنازلات مجانية افتقدت ادنى اشكال الاجماع حتى داخل فريق مدريد الذي سريعاً ما تشظى على ابواب اوسلو، وذهب شعبنا ضحية فئة مارست الادمان في مفاوضات ظلامية من خلف الشعب ومؤسساته وقواه الوطنية. اليس من الاولى ان يتوحد شعب محتل في وجه محتليه، اما آن الاوان لهذا العبث بالحقوق الوطنية المشروعة ان يتوقف، ونحن امام هذا المنعطف الخطير الذي يمر به شعبنا.

* الامين العام للجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين.

البحر الحيّ؟

■ المنتدى الاقتصادي العالمي غيّر موعده المألوف. غيّر مكانه. جاء الينا. فعل مع الشرق الاوسط ما فعله مع نيويورك بعد نكبتها في ٩/١١ ونحن، بطريقتنا، منكوبون. فمنطقتنا منطقة الحروب والاحتلالات والتردّي على الأصعدة جميعاً. اختارت دائماً الانقسام السياسي والعصبي على الاندماج الاقتصادي. شتمت العولمة أضعاف أضعاف ما تعرضت لها. شككت بكل «شرق اوسط جديد» واعتبرته «مؤامرة». شككت بكل كلام عن الاستثمارات وضرورتها.

المنتدى جاء الى حيث الاستثمار لم يصبح مطلباً شعبياً. الى حيث الثقافات الشعبية لا تزال تعيّر بـ«حب الدولار». الى حيث الانظمة يصيبها الكومبيوتر والانترنت بالرعب.

نحن لم نذهب الى دافوس طلباً لحلول. دافوس جاءت الينا. الى البحر الميت على مقربة من فلسطين ونزاعها. على مقربة من العراق الذي يُقال انه في صدد إعادة إعمار. الى حيث يمكن ان يكون عرب كثيرون وأن يأتي، كذلك، بضعة اسرائيليين. الى حيث النفط الذي قد تتزود به حيفا: الآن كما قال بنيامين نتانياهو، او في غد قريب كما أوحى شمعون بيريز.

والبحر يفتح. والميّت يسدّ. والجميع مسؤولون عن جعله البحر الحيّ!

العرب والمسلمون: من طريق التسليم بأن للاقتصاد دوراً في السياسة. في تذليل المشكلات. في دمج أطراف العالم التي تزيدها النزعات الترابية والدينية والعرقية (واحياناً الاقتصاد نفسه) تجزيئاً. من طريق الاقلاع عن الخرافة النضالية القديمة ـ الجديدة من ان كل تبادل غير متكافئ نهب وسرقة.

الغربيون لا سيما الاميركان الذين ينوون (؟) بناء سوق مشتركة مع العرب والمسلمين: من طريق التسليم بأن للسياسة دوراً في تسهيل عمل الاقتصاد. فلكي لا يبدو الاخير نهباً ينبغي ابداء السخاء وممارسة الضغوط في السياسة. وكي يبدو الحل الاجمالي ممكناً، عبر التجارة والاستثمار، ينبغي ان تبدو الحلول الموضعية، الجزئية، بالغة الامكان. فالعدل في فلسطين والجدية في العراق طريقان الى الازدهار الاقليمي، والكوني، تماماً كما ان الازدهار طريق الى فلسطين والعراق. الى القلوب والعقول والجيوب في وقت واحد.

وهذا نقاش قديم في العالم العربي: فأهل التبسيط قالوا، منذ بناء قناة السويس، ان العالم يمكن توحيده بالاقتصاد والمصالح. فاذا رفض العرب والمسلمون ان يتوحّدوا عولجوا بالقوة. وأهل التعقيد، منذ ثورة احمد عرابي، قالوا ان السياسة والدين حائلان دون اي توحيد. دون اي اندماج. دون اي اقتصاد. وردوا على قصف المدافع، المصحوب ببناء المدارس وسكك الحديد، بقصف المآذن والفتاوى.

والأولون لم يربحوا. يكفي ان لبنان، الجوهرة الكبرى في تاج الحداثة العربية، ليس في البحر الميت. يكفي ان ما ابتدأته القمة الاقتصادية للشرق الاوسط عام ١٩٩٤ في الدار البيضاء، توقف او انتكس أو استؤنف سراً وتهريباً. والاخيرون لم يربحوا. فالفقر والعنف والأمية والارهاب تفتك بهم، وارضهم تتقلص تحت اقدامهم، وهم ماضون في العضّ على الجمر. لا يريدون الوصول الى العالم ان كان سيمرون في اسرائيل. لا يريدون الحداثة ما دامت تعني اعتناق قدر من الغربية.

لكن بين الطرفين، وفوقهما، ثمة ما يستحق الانتباه اليه. هناك طبقات وسطى ضعيفة الا انها تبحث عن تمكينها. هناك بلدان صغرى، كالاردن المضيف، تبحث عن ادوارها. هناك افراد يبحثون عن حريتهم في ان يفكّروا ويقرروا ويسافروا ويبيعوا ويشتروا. هنا «الحزب» المؤهّل ان يدمج السياسة بالاقتصاد، وطلب العدل بطلب الحرية. هنا «حزب» البحر الحيّ الذي كانه المتوسط.

حازم صاغيّة

أهلاً بكم... أبواب العراق مشرّعة

■ خمس سنوات لإعمار العراق + عشر سنين يفترضها الاميركيون لبقاء قواتهم في العراق الجديد = جزرة كبيرة تستحق توجيه دعوة الى الاسرائيليين: أهلاً بكم، ابواب البلد مشرّعة لاستثماراتكم وسيّاحكم، وجنان من الفرص الذهبية لاقتصادكم المريض.

صاحب الدعوة نائب وزير الخزانة الاميركي جون تايلور، وهو أطلقها من على ضفاف البحر الميت، من دون تردد او خجل، او ستر الهدف، اي انقاذ الاقتصاد الاسرائيلي، فيما ملايين من العراقيين لم يجدوا بعد وسيلة لتأمين قوتهم. سبق تايلور في العزف على وتر «العراق الجديد» من دون مراعاة لجروح شعبه الذي يواجه الاحتلال بعد الديكتاتورية، وزير المال الاسرائيلي بنيامين نتانياهو المتفائل بتدفق نفط كركوك على حيفا قريباً. الاول يستبيح ارضاً يحتلها، ويدعو من لا يزال عدواً في وجدان معظم اصحابها، الى مشاركته غنائم الحرب... أليست قمة الوقاحة، فيما الثاني يستفز العراقيين ومعهم جميع العرب، لأنه قادر بكل بساطة على «التعاقد» مع الاحتلال؟

ولئلا تُتهم واشنطن بالأنانية، ها هو تايلور يوجه دعوة اخرى الى الاسرائيليين للمشاركة في اعمار العراق، كأنه يضع الحجر الاساس لمشروع مارشال اميركي ـ يهودي في بلد عربي تغنيه ثرواته وكفاءات أهله، عن «حسنات» الولايات المتحدة، و«هبات» الآتين من أرض سرقوها، فاكتسبوا خبرة تؤهلهم لنهب أرض أغنى.

لسانهم يدينهم، والغزو الاسرائيلي للعراق، بعد الاميركي، برؤوس الاموال والتكنولوجيا، لم يعد مجرد هواجس منبعها اشاعات ومبالغات، بل مشروع خبيث سيتسلل الى جسد العراقي ووجدانه تحت حراب الاحتلال، لتحطيم هويته القومية، واستخدامه لاحقاً رأس حربة في طعن اشقائه.

واذا كانت فضيحة تايلور تكاد ان تعادل «عراق غيت» ثانية، بعد ما آلت اليه فضيحة التلفيق والتضخيم في تقدير خطر الاسلحة المحظورة التي امتلكتها بغداد قبل الحرب، او حاولت تطويرها، فإن فتح بازار المشاريع امام الدولة العبرية في غياب سيادة البلد المحرر من صدام حسين، يغيّب ارادة العراقيين، ويعطي دليلاً جديداً على نيات الاحتلال الذي صوره الرئيس جورج بوش ممراً وحيداً الى الدولة الديموقراطية الفاضلة.

ربما فات نائب الوزير الاميركي الذي كشف طموحاته في حضور حاكم العراق بول بريمر «ممثلاً» لهذا البلد في المنتدى الاقتصادي على ضفاف البحر الميت، ان الصراحة ـ الوقاحة ستصبّ الزيت على نار العداء للاحتلال، وتمنح المقاومة سلاحاً فتاكاً في مواجهة «التحالف»، ألا وهو تعبئة العراقيين في صفوفها سريعاً. والمدهش ان الاميركيين أنفسهم يتبرعون في كشف الخديعة، واحدة تلو اخرى، مثلما أبدعوا في استعداء كل القوى السياسية التي حالفتهم لإطاحة صدام، ثم اكتشفت قبل ان يتبدد بارود الحرب ودخان حرائقها، كيف كانت مطية للغزو، وباتت مقراتها في بغداد أقل حصانة من مخابئ اللصوص!

لا بأس على العراقيين، خصوصاً الفقراء منهم، فالاسرائيليون يبشّرونهم بتكنولوجيا متفوقة، وبأفواج من السياح تخرج لهم جامعة حيفا مرشدين، كأن البلد المنكوب بالحروب، اكتشف العلة: العداوة لليهود، واهمال الآثار! يحدث ذلك بينما الحاكم بريمر لا يتوانى كل يوم عن تحطيم آمال من كانوا معارضين لصدام، بالمشاركة في صنع الدولة الجديدة، ولا يتردد عسكر الاحتلال في استباحة حريات المواطنين ومنازلهم، بحجة تعقب فلول النظام السابق.

هؤلاء، لا يكفّ الرئيس جورج بوش عن تذكيرهم بأنه صاحب الفضل في منحهم «الحرية»، فيما يتناسى هو وإدارته، القوانين الدولية التي لا تبيح لأي قوة محتلة ان تتعاقد او تتصرف باسم من تخضعهم. أوليس تشجيع الاسرائيليين على اقتسام كعكة العراق، طعنة لأهله بخنجر يهودي؟... فرضاً لتطبيع بالقوة، كأنه بعض ثمن «التحرير»؟

ذاك آخر عشرات الأمثلة على الطيش الاميركي الذي يستضعف ملايين من البشر ويغريهم بجزرة ديموقراطية، لا أحد يتخيل لها حتى الآن سوى شكل الوليد المعاق، وربما الأخرس... بدليل أن بريمر لا يريد لها صوتاً إلا على أوتار «التحالف»، والتحالف في قاموس المصالح لدى تايلور يعني شراكة اميركية ـ اسرائيلية.

بعد كل ذلك، ألا يحق لأولئك الملايين ان يقلقوا على مصيرهم، في بلد خطفه الحكم البائد، ودمّرته حرب «التحرير»، وتهدّده مشاريع الإعمار بغزو اسرائيلي، عسكره رجال الاعمال والسيّاح؟

زهير قصيباتي

الحياة AL HAYAT

أسسها كامل مروة عام ١٩٤٦

رئيس التحرير: جورج سمعان

Editor-in-Chief: George Semaan

رئيس التحرير المساعد: غسان شربل

نائب رئيس التحرير: عبد الوهاب بدرخان

مديرا التحرير: زهير قصيباتي

عبدالله اسكندر

المدير العام: روبير جريديني

■ المكتب الرئيسي (لندن):

KENSINGTON CENTRE, 66 HAMMERSMITH ROAD, LONDON, W14 8YT

– التحرير: الهاتف: 020-76029988 الفاكس: 020-73714215 / 020-73714225 التلكس: 925746

– الادارة العامة: الهاتف: 0207-6029988 الفاكس: 0207-6024963 التلكس: 925751

– التوزيع: الهاتف: 0207-6052123 0207-6052122 الفاكس: 0207-6024514

■ مكتب باريس: 162 Rue du Faubourg Saint Honore 75008 - PARIS Tel: 42 25 9204 Fax: 42 25 9217

■ مكتب بيروت: الوسط التجاري – شارع المعرض – مبنى دار «الحياة» – ص.ب ١١/١٣٤٢

هاتف: ٤ / ٣ / ٢ / ١ / ٩٨٧٩٩٠ (٠١) فاكس التحرير: ٩٨٣٩٩٥ (٠١) فاكس الادارة: ٩٨٣٩٢١ (٠١)

■ مكتب الرياض: جرير بلازا – الدور الرابع – شارع العليا العام

ص.ب. ٦٨٩٠٧، الرياض ١١٥٣٧، الهاتف: ٤٦١٥٦٧٥ / ٤٦١٥٤٩٦ / ٤٦١٥٤٠٢، الفاكس: ٤٦١٥٣٢٥

ادارة التسويق: هاتف: ٥٤٠٢ ٤٦١، فاكس: ٧٥٣٢ ٤٦١ .

■ مكتب جدة: شارع الاندلس، بناية تهامة، الطابق الثالث. ص.ب. ٢٣٥٦٨، جدة ٢١٤٣٦، الهاتف: ٦٥٣٤٤٢٦، ٦٥٣٢٢٠٢ الفاكس: ٦٥٢٠١٥١

■ مكتب الدمام: الدمام، شارع الملك فهد، مبنى تهامة تليفاكس : ٠٣-٨٤٣٤١٠٠

■ مكتب القاهرة: ٨ شارع رستم المتفرع من شارع اميركا اللاتينية، شقة ٥ الدور الثاني، جاردن سيتي

الهاتف: ٧٩٥٠٠٤٠ و ٧٩٢٠١٦٩، الفاكس: ٧٩٥٨٠٤٣

■ مكتب دمشق: مزة فيلات غربية – برج تاله ط ٩ الهاتف: ٠٠٩٦٣١١٦٦١٠٠٠٠/١ الفاكس: ٠٠٩٦٣١١٦٦١٥٠٠٠

– الاعلانات: تهامة للاعلان والعلاقات العامة والتسويق

جدة – شارع الامير/محمد بن عبد العزيز (التحلية سابقاً)، مبنى بن حمران،

المملكة العربية السعودية، الهاتف: ٦٦١٧٧٧٧ – ٢ – ٩٦٦ (١٥ خطاً) – الفاكس: ٦٦١٧٧٤٤ – ٢ – ٩٦٦

TIHAMA - MEMS DUBAI tel:00 9714 3355888 Fax:00 9714 3342844 email: tihamamems@choueirigroup.com

● تصدر عن شركة الحياة الدولية للنشر

Registered as a newspaper at the Post Office

مزيد من المعلومات في موقع الحياة:

http://www.daralhayat.com